مقدمة المرزوقي

لشرح لحماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

- ٣ -

قال المؤلف : (فمن البلغاء من يقول : فقر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها فاذا وُسِمَ أغفالُها بتحسين نظومها وحُلي أعطالُها بتركيب شذورها فراق مسموعها ومضبوطها وزان مفهومها ومحفوظها وجاء ما حرز منها مصروفاً من كدر العي والخطل مقوماً من أود اللحن والخطأ سالماً من جنف التأليف موزوناً بميزان الصواب يموج في حواشيه رونق الصفاء لفظاً وتركيباً . تبلد الفهم والتذ به السمع . واذا ورد على ضد هذه الصفة صدي الفهم منه وتأذى السمع به تأذي الحواس بما يخالفها) .

أراد بالبلغاء أئمة النقد وعلماء فن الترسل وقرض الشعر والبلاغة الذين يصرفون اهتمامهم الى العناية بحالة الكلام المفيد المعاني وجعله مناط الاختيار والنقد .

وهذا المذهب نسبه الآمدي في كتاب الموازنة الى الكتّاب وأهل البلاغة . ونسبه عبد القاهر في دلائل الإعجاز الى القدماء وعلى حسب اهتمامهم هذا يجري اختيارهم فيما يختارون من صنائع أهل الأدب ويجري تعليمهم فيما يلقنون للشادين في مزاولة الصناعة من الترسل وقرض الشعر . فهم يصرفون الاهتمام الى محاسن الكلام فلما وجدوا المعاني إنما تظهر من دلالة الكلام عليها صرفوا أول العناية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى جانب الكلام وألفاظه وجعلوا المعاني حاصلة بالتبع . وعلى عكس هذه الطريقة من الاعتبار جرى الفريق الذين قدموا النظر الى جانب المعاني .

فظهر أن المقصود من صرفهم الاهتمام الى العناية بحالة الكلام اشتراطهم أن يكون كلاماً فصيحاً بفصاحة كلماته في حد ذاتها وبفصاحة تراكيبها عند اجتماعها .

فأما فصاحة الكلمات فلأنها أجزاء الكلام فتعين أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحاً .

ومعنى فصاحة الكلمات سلامتها من تنافر الحروف ، ومن الغرابة ومن مخالفة قواعد اللغة المستقرّة من استعمال العرب وهذا ما يقتضيه تشبيه المؤلف الألفاظ بالجواهر والدرر . إذ لم يختلف أئمة البلاغة في أن من شرط كون الكلام فصيحاً أن تكون كلماته فصيحة ولم ينكروا أن الألفاظ المفردة تتفاضل بمقدار تفاضلها في فصاحتها . ويظهر ذلك جلياً في المترادفات فلا يختلفون في أن لفظة أسد أحسن من لفظة فدوكس وقد عابوا استعمال المتنبي ألفاظ القنقلة في قوله :

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل هم كلهن قلاقلُ

قال الشيخ في دلائل الإعجاز [1] «وقصارى تفاضل الكلمتين لا يكون أكثرَ من كون إحداهما مألوفة مستعملة والأخرى غريبة وحشية . أو تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن ومما يكد اللسان أبعد» .

وقال [2] «من المعلوم أن لا معنى لعبارات البلاغة والفصاحة والبيان التي يُنسب فيها الفضل والمزية الى اللفظ دون المعنى غير وصف الكلام بحسن دلالته وتمامها ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من قبل القلوب ولا جهة لاستكمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختارَ له اللفظ الذي هو به أخص

(١) صفحة ٣٦ . (٢) صفحة ٣٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية ، وهل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من دلالة صاحبتها على ما هي موضوعة له حتى يقال ان رجلاً أدل من فرس فلذا لا تتفاضل الكلمتان المفردتان إلا بالنظر الى المكان الذي تقعان فيه من نظم الكلام ، ولا تجد أحداً يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر امكانها من النظم وحسنَ ملاءمة معناها لمعنى جارتها » .

وقال[1] « فاذا تلاقت في النطق حروف تثقل على اللسان (ومثّله بأبيات التنافر الشديد والمتوسط) فذلك وجه من وجوه التفاضل بين كلام على كلام ولكن ليس المقصود أن يكون ذلك عمدة المفاضلة وهذا لا ضرر به علينا اه » .

ولهذا فالذين لم يتعرضوا الى محاسن الكلمات المفردة ما أرادوا عدم الالتفات الى شرائط حسنها ولكنهم استغنوا عنه بحصوله تبعاً لحصول شرائط فصاحة الكلام ومحاسنه ولكن المتأخرين من عهد السكاكي رأوا أن لا محيص عن الاعتداد بصفات الكلمة المفردة قبل دخولها في نظم الكلام فجعلوا الفصاحة مشتركة الوقوع في المفرد وفي الكلام لاسيما بعد أن وضحت المحجة وزالت الشبهة التي استنكرها عبد القاهر وإن كانوا لا ينكرون أن فصاحة المفرد لا يهتم بها إلا من حيث أنه معرض للوقوع في الكلام . فآل الخلاف الى اللفظ . وقد أشار المؤلف الى الأمرين في قوله الآتي « إذْ كانت الألفاظ للمعاني بمنزلة المعارض للجواري » . وأصحاب هذا المذهب لا يعبأون بالصنعة ولا يتكلفون للمحسنات ومنهم عبد القاهر قال في أسرار البلاغة[2] « ولن تجد أيمنَ طائراً ، وأحسنَ أولاً وآخراً . من أن ترسل المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ فانها اذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها فاما أن تضع

(١) صفحة ٤٤ .
(٢) صفحة ١٠ طبع مجلة المنار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في نفسك انه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بمعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم اهـ» .

واليك تفسير مفردات من كلام المؤلف : فقر بكسر ففتح اسم جمع فقرة وهي ما انعقد من عظام الصلب كالعُلبة وأراد بها المفردات . والغرر جمع غرة وهي دارة بيضاء في جبهة الفرس وهي من محاسن الخيل وأراد بها محاسن الكلمات والمعنى إن شروط محاسنها كشروط محاسن الجواهر في العقود افراداً وتأليفاً . والأغفال جمع غُفْل بوزن قُفْل وهو القدح من قداح الميسر الذي لم يجعل له علامة تدل على نصيب من يخرج له .

وبذلك يظهر معنى قوله فاذا وسم أغفالها حيث جعل الكلمة غير المنتخبة كالقدح الذي لا حظ له في القداح . والأعطال جمع عاطل وهي المرأة التي لا حلية عليها جعل الكلمة غير المنتخبة كالمرأة غير الحالية فاذا انتخبت الكلمة للمعنى كانت كالمرأة الحالية . والعِيّ بكسر العين وتشديد الياء العجز عن الكلام وأراد به هنا العجز عن تأليف الكلام في الترسل والإنشاء . والخطل بفتحتين خطأ الرأي أراد به هنا الخطأ في المعنى . واللحن الخطأ في الألفاظ بإيرادها على خلاف الطريقة العربية والخطأ في الكلام أراد اللفظ في غير معناه الموضوع له لغة دون قصد مجاز أو استعارة تدل عليها قرينة . والجنف بجيم ثم نون مفتوحتين الخروج عن جادة الطريق وأراد به الخطأ في نظم الكلام على الأساليب العربية في التقديم والتأخير ووقع في إحدى النسختين التونسيتين حيف بحاء مهملة ومثناة تحتية وهو الظلم أو ظلم الكلام العربي لعدم إعطائه حقه الذي رسمه له العرب ولفظ جنف أحسن .

والموج اضطراب سطح الماء وتحركه وهو من محاسن منظر الماء .

والخواشي الأطراف وهي للماء شطوطه وحافات سواقيه .

والرونق الحسن واللمعان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال (ومنهم من لم يرض بالموقوف على هذا الحد فتجاوزه والتزم من الزيادة عليها) . أي من البلغاء فريق لم يقتنعوا لحسن الكلام بحسن ألفاظه وتركيبه بل ارتقى الى طلب محاسن زائدة تتعلق بزيادة في تنميق الكلام ومحاسنه وهي (تتميمَ المقطع) أي حسن اختتام الرسالة والخطبة والقصيدة فالمقطع اسم مكان القطع أي قطع الكلام أي ختمه وتنهيته ومعنى تتميمه جعله تاماً لا يترقب السامع شيئاً بعده وهو أن يؤتي بما يؤذن بانتهاء الكلام كقوله تعالى « هذا بيان للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » وقوله « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » . وأشهر أنواع براعة المقطع الدعاء إلا أنه لكثرة وروده في الرسائل سمج في الأذواق فكان العدول الى غيره أحسن مثل التوريات بلفظ الكمال والختام ومثل ما لا يبقى بعده متوقب للازدياد من الخبر كقول الحريري في المقامة ٣٣ : « فعاهدني على أن لا أفوه بما أعتمد . ما دمت بهذا البلد ، فعاهدته معاهدة من لا يتأول ووفيت له كما وفى السموأل » وقوله في المقامة المائة : « فمزقت رقعته شذر مذر ، ولم أبل أعذل أم عذر » وهذا الشرط الذي ذكره المؤلف من استحسان المولدين ولم يكن مرعياً عند بلغاء العرب قال « وتلطيفَ المطلع » أي جعله لطيفاً أي رفيقاً حسناً أنيقاً لأنه أول ما يقرع سمع السامع قال ابن الأثير في الجامع الكبير[1] : « وقد كان بعض علماء البيان يقول أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فانهن دلائل البيان » ومن أهم ذلك الاحتراس من ألفاظ تستكره عند السامع ، وللعوائد أثر في هذا الشأن ولذلك قد ترى المولدين ينتقدون بعض فواتح القصائد بما قد كان مثله شائعاً عند العرب مثل ذكر البين والبلى . وأحسنُ مطالع القصائد ما كان يلفت نظر السامع الى ما بعده بأن لا يكون

(١) مخطوط بمكتبتي في ١٠٠ ورقة وسيأتي ذكره في ترجمة صاحبه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من المطالع المعتاد تكررها في الشعر والنثر فينبغي أن يكون المطلع عزيزاً غير مطروق وذلك في الألفاظ المفتتح بها فاذا انضم اليها عزة المعنى فقد استوفى المطلع الحسن فان من المعاني المطروقة بكاء الديار الذي ابتكره امرؤ القيس ومع ذلك تجد مطالع للنابغة في هذا المعنى لطيفة ومن أحسن المطالع قول عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم »

وعرف بإجادة المطالع أبو تمام والبحتري والمتنبي . وكذلك الأمر في الرسائل مثل الرسالة الرقطاء للحريري . أما فواتح سور القرآن فقد وردت على أكمل الوجوه بخلاف مطالع رسائل البديع والخوارزمي إذ التزما غالباً افتتاحها بكلمة « كتابي » .

« وعطفَ الأواخر على الأوائل » أراد به ما يسمى عند المتأخرين رد العجز على الصدر ويسمى عند المتقدمين التصدير وأمثلته كثيرة ولفظ عطف في كلامه هو بالمعنى اللغوي وهو الرجوع والميل وليس المراد المعنى النحوي .

« ودلالةَ الموارد على المصادر » أراد بها براعة الاستهلال وهي أن يؤتى في أول الكلام بمعان فيها إيماء الى الغرض المقصود منه فكأنه في أول كلامه وارد للماء وكأنه في آخر كلامه صادر عن الماء وهذا قسم من براعة المطلع التي سماها المؤلف آنفاً « تلطيف المطلع » .

والموارد جمع مورد وهو مكان ورود المستقين أي مجيئهم الى الماء قال تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » .

والمصادر جمع مصدر وهو المكان الذي يصدر المستقون منه عن الماء بعد السقي قال تعالى : « قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء » .

والاختلاف بين الموارد والمصادر باعتبار اختلاف حال المستقي أما المكان فواحد .

« وتناسُبَ الفصول والوصول » الفصول جمع فصل والوصول بالواو جمع وصل وكلاهما لقب من الألقاب المصطلح عليها عند علماء المعاني من أئمة البلاغة فالفصل ترك عطف جملة على جملة قبلها بأن يؤتى بالثانية غير مقترنة بحرف عطف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والوصل عطف إحدى الجمل على الأخرى ولكل من الفصل والوصل مواقع بعضها تتعين مراعاته وبعضها تحسن مراعاته وقد عقد لها باب واسع في دلائل الإعجاز لعبد القاهر وفي المفتاح للسكاكي . وأتى المؤلف بصيغتي الجمع في الفصول والأصول باعتبار تعدد مسائل كل وصورها والمؤلف حشر هذا النوع في عداد الصناعة اللفظية نظراً الى كون الإتيان بالعاطف وعدمه لا يغير معنى الجملة غالباً وإنما هو وسيلة من وسائل الإيضاح والإفصاح في العربية فهو بمنزلة الإعراب [1] فآل الى حالة لفظية في نظم الكلام وإن كانت مراعاته ترتبط بمراعاة موقع معنى الجملة من معنى التي قبلها فملاحظة موقع الجملة شرط في مراعاة الفصل أو الوصل ولا يوجب اختلافاً للمعنى الذي تشتمل عليه الجملة . وأما عد باب الفصل والوصل في علم المعاني فلأن مسائله ليس لها شائبة اندراج في مسائل علم البيان ولا في مسائل علم البديع فكان علم المعاني أولى بضمها وهي بالفصاحة أعلق فينبغي أن ينتبه لهذا الصنيع الذي صنعه المرزوقي بتدقيقه وسيأتي ذكر الفصول والوصول في عيار التحاء أجزاء النظم .

« وتعادل الأقسام » يريد بتعادل الأقسام ما يسمى عند الأدباء بصحة التقسيم ثم مقابلة كل قسم من المعاني المتحدث عنها بقسميه وعدم الغفلة عن ذلك ولا التخليط فيه وقد قال المؤلف لما ذكر المقابح [2] « أو يكون في القسم أو التقابل أو التفسير فساد » .

واعلم أن هذا مبحث عظيم من مباحث علم الخطابة تكثر الحاجة اليه فيها .

---

(١) نبهت بهذا على ان الاعراب ليس ما يتوقف عليه فهم معنى الكلام بل هو مبدأ من مبادئ فصاحة الكلام العربي فلا نسلم لمن قال :

وقالوا قام زيد ثم ظنوا بدون الرفع زيدا لن يقوما

ولم أر من سبقني الى التنبيه على هذا .

(٢) صفحة ٩٦ من المنشور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنزع دقيق من منازع صناعة الترسل وصناعة الشعر . وتفصيله في كتب البديع ونقد الشعر . والتعادل التكافؤ أي أن لا يكون بعضها أوفر في الذكر « وتعادل الأوزان » ظاهر ان ليس مراده بالأوزان أوزان الشعر لأن كلامه هنا على شرائط الاختيار في الكلام المنثور ولأن حقيقة الشعر مشروطة بتعادل أوزان وسيجيء كلامه على ذلك بالنسبة للشعر في ذكر الباب الخامس من الأبواب السبعة التي جعلها عمود الشعر ولذلك لم يعد هناك تعادل الأوزان وإنما ذكر إتمام أجزاء النظم .

وإنما أراد بتعادل الأوزان هنا تساوي سموط الأسجاع وهي المسماة بالقرائن التي تنزل من الكلام المسجوع منزلة المصاريع للشعر فتعادلها بأن تكون متساوية المقدار في النطق معتدلة فيه وذلك أصل السجع وبمقدار تساويه تتفاوت أقدار الكتاب . مثال المعتدل التام قول الحريري في المقامة ٣ : « وأودى بي الناطق والصامت ، ورثى لي الحاسد والشامت » .

ومن هذا القبيل قول المؤلف في صدر هذه المقدمة حسبما في النسخة التونسية : « وهو مستودع آدابها . ومستحفظ أنسابها . ونظام فخارها عند الفخار . وديوان حجاجها عند الخصام » .

وقد يكون بينها تفاوت قليل كقول الحريري في المقامة ٢٩ : « ألجأني حكم دهر قاسط ، الى أن أتجرع أرض واسط » ولا يجوز التفاوت الكثير بين القرينتين وبالخصوص إذا كانت القرينة الأولى أطول من الثانية . ومما يندرج في تعادل الأوزان أن تقابل زنة اللفظ بمثلها في صيغة الاشتقاق من فعل أو وصف كقوله تعالى : « قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي » فقوبل ضللت باهتديت وهما فعلان ماضيان وقوبل أضل بيوحي وهما فعلان مضارعان . ومن تعادل الأوزان قول الحريري في المقامة الأولى : « وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه . ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » وكل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا معدود من المحسنات اللفظية فلا يصير البليغ اليه إلا حيث لا يوجد ما يقتضي خلافه من جهة المعنى البلاغي ويراعى قريب منه في سموط الترسل غير المسجوع .

وإنما حشر المؤلف هذا في عداد الخصائص العائدة الى الألفاظ لأن الكاتب يغير ترتيب المعاني في سجعه تغييراً بهيء لموافقة هذا الأسلوب اللفظي فكان بسبب ذلك عملاً لأجل دقائق من حسن اللفظ يدل على قوة المنشيء في سجعه وكذا القول في الترسل .

« والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى حتى يطابق المعنى اللفظ ويسابق فيه الفهمُ السمعَ » قال عبد القاهر في دلائل الإعجاز [1] : « ويختار للمعنى اللفظ الذي هو به أخص وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية » .

« ومنهم من ترقى الى ما هو أشق وأصعب فلم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة حتى طلب البديع من الترصيع والتسجيع والتطبيق والتجنيس » هذه ألقاب لأنواع من البديع لا تعسر على الناظر تراجمة مباحثها من علم البديع .

« وعكس البناء في النظم » يريد بالنظم انتظام الكلام لا لمقابل النثر كما لا يخفى . وهذا النوع المحسن البديعي المسمى ما لا يستحيل بالانعكاس كقول العماد الكاتب للقاضي الفاضل وقد مر عليه راكباً فرساً « مر فلا كتبا بك الفرس » . فأجابه الفاضل وقد فطن لما في كلامه من البديع فقال : « دام علا العماد » ومن أحسنه في الشعر قول الارجاني :

مودته تدوم لكل هولٍ وهل كلُّ مودته تدومُ

ومن أحسنه رسالة البديع الهمذاني المثبتة في مجموعة مراسلاته [2] .

« وتوشيح العبارة بألفاظ مستعارة » غلّب المؤلف جانب الحسن اللفظي هنا على الخصوصية المعنوية فعد هذا في المحاسن اللفظية جرياً على طريقة كثير من

(١) صفحة ٣٥ .

(٢) طبع مطبعة الجوائب بالآستانة صفحة ٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدباء وأهل البديع وهي طريقة المتقدمين من الأدباء الذين دوّنوا أصول الأدب قبل أن يميز علم البلاغة بالتدوين بعناية الشيخين عبد القاهر والسكاكي والى هذا أشار الخطيب القزويني في قوله : «وبعضهم يسمي العلوم الثلاثة علم البديع» .

وقد لمح الى الاستعارة ومثالها عز الدين الموصلي في بديعيته بقوله :

دع المعاصي فشيب الرأس مشتعل بالاستعارة من أزواجها العقم

«الى وجوه أخر تنطق بها الكتب المؤلفة في البديع فاني لم أذكر هذا القدر إلا دلائل على أمثالها ولكل مما ذكرته وما لم أذكره رسم من النفوذ والاعتلاء بازائه ما يضاده فيسلم للنكوص والاستفال» أي بحيث يرتفع شأن الكلام في الحسن والقبول بمقدار مراعاة هذه الخصائص والمحاسن وينحط بإهمال ذلك في مواقع مراعاته انحطاطاً بمقدار ذلك الاهمال .

«فأكثر هذه الأبواب لأصحاب الألفاظ إذ كانت للمعاني بمنزلة المعارض للجواري فأرادوا أن يلتذ السمع بما يدركه منه ولا يمجه ويتلقاه بالإصغاء والإذن له فلا يحجبه» أشار بقوله فأكثر هذه الأبواب لأصحاب الألفاظ الى أن بعضها يتجاذبه الجانب المعنوي مثل الفصول والوصول ومثل توشيح العبارة بالاستعارة كما أشرنا اليه هنالك . والمعارض جمع مِعْرَض بوزن منبر وهو الثوب الذي تتجلى فيه الجارية حين تتعرض للبيع وهذا تشبيه طريف وقد تبعه فيه عبد القاهر قال في دلائل الإعجاز [1] : ويجعلون المعاني كالجواري والألفاظ كالمعارض لها» وأشار المؤلف بالتقييد في قوله «إذ كانت للمعاني بمنزلة المعارض للجواري» إلى أن البلغاء الذين صرفوا همتهم في اختيار الكلام البليغ الى جانبه اللفظي ما أرادوا حالة مفردات الألفاظ ولكن أرادوا حالة الكلام المؤلف كيف تبرز حين تأليفه والمؤلف ينحو بهذا الى ما تقدم مما حققه عبد القاهر .

---

(١) صفحة ١٩١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وقد قال ابو الحسن ابن طباطبا في الشعر : هو ما ان عرى من معنى بديع لم يعر من حسن الديباجة ، وما خالف هذا فليس بشعر » ساقه حجة على أن العناية باللفظ هي في الدرجة الأولى عند كثير من أهل الأدب بحيث ان حسن الديباجة اللفظية تجعل الكلام مقبولا ولو كان عريًا من معنى بديع اذ قد يعرى البيت أو أكثرُ من القصيدة ، والسطرُ أو أكثرُ من الرسالة ، عن معنى بديع فيكسوه الكلام بحسنه حسنًا يعتاض به عن حسن المعنى . وكلام أبي الحسن وإن خصه بالشعر فهو منطبق على النثر لا محالة كما أشار اليه المرزوقي بسوق كلام أبي الحسن عقب ما تقدم ثم تقييده بقوله « في الشعر » وأبو الحسن ابن طباطبا هو محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن أيضًا ابن علي ابن أبي طالب وطباطبا بفتح الطاء مكررًا لقب ألصق بجد جده ابراهيم بن اسماعيل لأنه كان يلثغ في القاف بجعله طاء وطلب يومًا غلامه أن يأتيه بثيابه فأتاه بدراعة فقال « لا طباطبا » يعني قباقبا . وأبو الحسن شاعر مفلق وعالم محقق ولد باصبهان وتوفي بها سنة ٣٢٢ كان مشهورًا بالفطنة وصحة الذهن وله كتاب عيار الشعر وكتاب تهذيب الطبع وكتاب العروض وكتاب المدخل في معرفة المعمّى من الشعر وكتاب في تقريظ الدفاتر كان ابن المعتز يلهج بذكره . وله شعر كثير ترجمه ياقوت في إرشاد الأريب ومن شعره البيت الذي فيه التشبيه اللطيف وهو :

لا تعجبوا من بِلى غِلالته قد زر أزرارَه على القمر

« ومن البلغاء من قصد فيما جاش به خاطره الى أن تكون استفادة المتأمل له والباحث عن مكنونه من آثار عقله . أكثر من استفادته من آثار قوله أو شله وهم أصحاب المعاني » هذا انتقال الى الطريقة الثانية من طريقتي البلغاء في عماد فضيلة الكلام وهي طريقة الذين صرفوا الاهتمام الأول الى المعاني التي يريد البليغ التعبير عنها وأنت تعلم أن مقصودهم الذي يرمون اليه هو مصرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاهتمام الأول على نحو ما قدمنا في تقرير مذهب أصحاب الجانب اللفظي وقد أشار المؤلف الى تحرير الجانب الذي منه يكون شرف المعاني بقوله ·

« فطلبوا المعاني المُعجبة من خواص أماكنها وانتزعوها جزلة عذبة حكيمة طريفة ، أو رائقة بارعة فاضلة كاملة ، أو لطيفة شريفة زاهرة فاخرة · وجعلوا رسومها أن تكون قريبة التشبيه لائقة الاستعارة صادقة الأوصاف لائحة الاوضاح خلابة في الاستطاف عطافة لدى الاستنفار مستوفية خلولها عند الاستهام من أبواب التصريح والتعريض ، والاطناب والتقصير ، والجد والهزل ، والخشونة والليان ، والإباء والإسماح · من غير تفاوت يظهر في خلال اطباقها ، ولا قصور ينبع من أثناء اعماقها ، مبتسمة من مثاني الألفاظ عند الاستشفاف محتجبة في غموض العيّان لدى الامتهان ، تعطيك مرادك إن رفقت بها وتمنعك جانبها إن عنّفت معها » ليريك أن ليس المراد بصرف العناية الى المعاني أن تكون معاني الكلام كلها من الحق والموعظة أو العلم فان ذلك لا يتأتى في كل كلام ولا بقتضيه كل مقام وان أكثر شعر العرب في الجاهلية بمعزل عن ذلك وانما المراد أن المعاني التي يجيش بها الخاطر وهي المعاني الأصلية من أغراض التخاطب وغيره إذا جاش بها الخاطر وترددت في النفس يكون حقاً على البليغ أن يصورها معاني فائقة من مجاز أو تشبيه أو إيجاز أو تلميح ، أو تلميح حتى اذا أديت بالكلام أبرزت ألفاظها صوراً من الحقائق والكيفيات العقلية تقع في نفوس السامعين مواقع الإعجاب أو الاستحسان فانك اذا افتقدت قول كثير :

ولما قضينا من منىً كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشُدت على دهم المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

وهذا معدود من أجود الشعر · لم تجد في أصل معناه أكثر من أنا فرغنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من الحج فركبنا راجعين ونحن نتحدث على مطي الرواحل . ولكنك تجده أفاد هذا المعنى بأفانين من التصوير المعنوي وتشخيص الأحوال ما ان سمعه السامع اهتز له إعجاباً . وتحرك للاستزادة من سماعه طلاباً . وكان من أصحاب هذا المذهب ابن الأثير في كتابه الجامع الكبير [1] إذ يقول [2] : « ينبغي أن يستيقن المؤلف أن المعاني أشرف من الألفاظ والدليل على ذلك أن لو خلعنا هذه الألفاظ من دلالتها على المعاني لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء بل كانت بمنزلة أصداء الأجسام والأصوات الناشئة عنها ويزيد ما ذكرناه وضوحاً أن هذه الصناعة من النظم والنثر التي يتواضعها البلغاء بينهم وتتفاضل بها مراتب البلاغة إنما هي شيء يستعان عليه بدقيق الفكرة وكثرة الروية ومن المعلوم أن الذي يُستخرج بالفكر ويُنعم فيه النظر إنما هو المعنى دون اللفظ لأن اللفظ يكون معروفاً عند أرباب صناعة التأليف دائراً فيما بينهم ، والمعنى قد يُبتدع فيذكر المؤلف معنى لم يسبق اليه الخ ... »

فمعنى قول المرزوقي : « من قصد فيما جاش به خاطره الى أن تكون استفادة المتأمل له والباحث عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قوله » أن أهل هذا المذهب يصرفون أكبر اهتمامهم عند قصدهم إفادة المعاني الأصلية الى أن يودعوها في صور من المعاني البيانية تفيد متأملها معاني جمة ليس كل معنى

(١) هو الوزير نصر الله بن محمد المعروف بابن الاثير الجزري الموصلي توفي سنة ٦٣٧ من أئمة الادباء والكتاب له كتاب المثل السائر مشهور مطبوع . وكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور ذكره صاحب كشف الظنون ويظهر أنه ألفه بعد المثل لأنه لم يذكره في كتاب المثل السائر مع أنه ذكر كتاباً آخر له سماه الوشي المرقوم في حل المنظوم . وهذا الجامع الكبير أخصر من المثل وأقل شواهد ولكنه قد يكون اكثر منه قواعد فلعله قصدمنه تهذيب الفن والاقلال من انتشاره وهو يقع في زهاء ثلث حجم المثل السائر وهو عزيز الوجود وفي مكتبتي نسخة منه نسخت سنة ٦٦٨ وهذه المسألة التي ذكرناها هنا هي مما لم يذكره في المثل السائر .

(٢) في الورقة ٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منها مستفاداً من جملة أو عبارة بل يستفاد الكثير منها من الجملة الواحدة وذلك بحسن التوصيف بتشبيه قريب واستعارة لائقة وسيشير المؤلف الى ما يحاوله البلغاء من ذلك بكناية وتعريض وتضرب الأمثال ومراعاة تأثر السامعين على حسب اختلاف طبقاتهم وتنوع مقامات خطابهم بما يناسب تلك المقامات من التصوير من خشونة أو رقة ، ومن جد أو مزح ، ومن تصريح أو رمز ويحصل بذلك الايجاز الذي هو زينة كلام البلغاء كما قيل « لمحة دالة » مما لو جعل لكل مراد منه لفظ أو جملة لطال الكلام وفاتت براعة مؤلفه وضاعت فطنة متأمله أو تساوت درجاتها . فاذا نظرت الى قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » وجدت التصور المفاد من كلمة اشتعل مغنياً عن أن يقال شاب شعر رأسي دفعة واحدة ولم يترك الشيب منه شيئاً كالنار اذا التهبت في الحطب ، فتصوير الاشتعال أفاد ذلك كله .

وأما معنى مفردات كلام المرزوقي فقوله جاش : فاض والخاطر : الذهن باعتبار جولته في المعاني فكأنه يخطر في خلالها أي يمشي ومقصود المرزوقي انه نشأت في نفسه المعاني التي أراد إفادتها ثم جالت في نفسه حتى تمكنت ووضحت فشبه ذلك التمكن بالجيشان وهو غليان القدر .

وقوله « من آثار عقله » متعلق « باستفادة » .

وقوله « أو مثله » هو غير مضبوط في النسخ التي بين أيدينا أو ينبغي أن يضبط بضمتين جمع مثال يعني أن يعتني بتصوير المعاني أكثر من عنايته بالقول والإيضاح بالأمثلة .

وقوله « رسومها » براء في أوله جمع رسم وهو ما يعرف به الشيء وأصله رسم الدار وفي النسختين التونسيتين ونسخة الأستانة ونسخة دار الكتب وسومها بواو في أوله وهو جمع وسم وهو العلامة .

وقوله « من غير تفاوت يظهر في خلال أطباقها ولا قصور ينبع من أثناء أعماقها » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأطباق بفتح الهمزة جمع طبق بفتحتين وقد تقدم في شرح قوله « لا يطابقه » وأراد بالتفاوت تفاوت الإفادة في ذلك التصوير بين ما يفيده بعض فقر الكلام ويفيده بعض آخر أي بأن تكون المعاني متوازنة فلا يوضع المعنى الشريف بإزاء المعنى السخيف ، والقصور العجز عن الوصول الى ما حقه أن يصل اليه وهو مشتق من قصر القامة أي قلة الامتداد في الأشياء بما يقتضيه كل أنواعها ، وشبه القصور الظاهر أثره بماء نابع بجامع الظهور وأثبت له النبع على طريقة الاستعارة المكنية وهو من تشبيه المعدوم المتخيل بالموجود مثل تشبيه اللؤم في بيت حسان :

لو ان اللؤم صُوِّرَ كان عبداً قبيحَ الوجه أعورَ من ثقيف

ومناسبة الاعماق للنبع ظاهرة فتكون ترشيحاً لا استعارة .

وأراد بالمبتسمة أنها تكشف عما تحجبه كشفاً حسناً كما يكشف الابتسام عن محاسن الثغر ومثاني الألفاظ في التراكيب لأن الكلمات تثنى فيها أي تكرر ومنه سميت الفاتحة المثاني .

و « الاستشفاف » هو نظر المتأمل وفي إحدى النسختين التونسيتين الاستسعاف أي طلب الاسعاف أي قضاء المطلوب فعلى هذه النسخة يكون الابتسام تمثيلاً بحالة سرور الكريم عند ملاقاة العفاة كما قال الشاعر :

تراه إذا ما جئته متهللاً

والاحتجاب تمثيل للمعاني بالنسوة يحتجبن ممن قد يستخف بهن في مواقع صونهن فقوله لدى الامتهان أي لدى إرادة الامتهان . وأما قوله « تعطيك مرادك » فهو تمثيل آخر مثل فيه المعاني بالناقة الكريمة لا تدرُّ إلا بالإيناس أي يرفق الحالب بها فاذا رفق بها مكنته ودرّت وإن اشتد عليها منعت قال بشار :

والدَّرُّ يمنعه جفاء الحالب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(فهذه مناصب المعاني لطلابها وتلك مناصب الألفاظ لأربابها) .

الاشارة بهذه الى الصفات المذكورة قريباً وتلك اشارة للبعيد وهو هنا إشارة الى الصفات المذكورة سالفاً لأنها بَعُد ذكرها .

والمناسب بفتح الميم جمع مَنسَب بفتح الميم وفتح السين وهو مصدر ميمي لنسبه ينسبه اذا ذكر نسبه وغالب إطلاق ذلك في ذكر الأنساب الشريفة أي فهذه الصفات التي ذكرتها قريباً هي صفات المعاني الشريفة الأصلية فهي للمعاني كالأنساب للناس فمن طلبَ المعاني الشريفة فليتوخ منها الصفات التي ذكرتها .

والمناصب جمع منصب بفتح الميم وكسر الصاد وهو مكان النصب أي رفع الشيء وإظهاره ومنصب المرء شرفه ورفعته أي الصفات التي ذكرتُها سالفاً هي مظان شرف الألفاظ فمن كان من أرباب الألفاظ أي المعتنين بها فليبحث عن انطباق تلك الأوصاف عليها . وبَيّنَ المناسب والمناصب في كلامه الجناس المحرف .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

يتبع :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net